اَلْعُصْفُورُ مَقْطُوعُ اللِّسَانِ

فِي مَنْزِلٍ صَغِيرٍ بِقَرِيَةٍ صَغِيرَةٍ فِي الْيَابَانِ، كَانَ يَعِيشُ رَجُلٌ مُسِنٌّ وَزَوْجَتُهُ الْعَجُوزُ. ذَاتَ صباحٍ فَتَحَتِ الزَّوْجَةُ الْعَجُوزُ نَوَافِذَ بَيْتِهَا، فَإِذَا بِهَا تُشَاهِدُ عُصْفُورَ دوريٍّ بَائِسًا يَقِفُ عَلَى عَتَبَةِ بَابِهَا، فَحَمَلَتْهُ بِعَطْفٍ وَنَقَلَتْهُ إِلَى دَاخِلِ مَنْزِلِهَا، حَيْثُ أَطْعَمَتْهُ وَاهْتَمَّتْ بِهِ. وَعِنْدَمَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ الدَّافِئَةُ وَضَعَتْهُ تَحْتَ شُعَاعِهَا حَتَّى جَفَّتْ أَجْنِحَتُهُ الْمُبَلَّلَةُ، ثُمَّ تَرَكَتْهُ يَذْهَبُ إِلَى حَالِ سَبِيلِهِ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى الطَّيَرَانِ مُجَدَّدًا، لِيَعُودَ إِلَى عُشِّهِ. لَكِنَّهُ بَقِيَ مَعَهَا لِيَشْكُرَهَا عَلَى جَمِيلِ صَنِيعِهَا بِأُغْنِيَةٍ جَمِيلَةٍ، أَخَذَ يُغَرِّدُ بِهَا.

وَفِي كُلِّ صَبَاحٍ، كَانَ عُصْفُورُ الدّورِيّ يَحُطُّ عَلَى سَطْحِ مَنْزِلِهَا عِنْدَمَا تُفْصِحُ وُرُودُ الْقُرُنْفُلِ السَّاكِنَةُ فِي قِمَمِ الْجِبَالِ عَنِ اقْتِرَابِ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَيَبْدَأُ تَغْرِيدَهُ. وَقَدْ لاَحَظَ الرَّجُلُ وَزَوْجَتُهُ مَا يَصْنَعُهُ الْعُصْفُورُ، وَشَكَرَاهُ عَلَى ذَاكَ الصَّنِيعِ، خَاصَّةً لأَنَّهُ عَلَيْهِمَا الاسْتِيقَاظُ مُبَكِّرًا فِي الصَّبَاحِ لِيَذْهَبَا إِلَى الْعَمَلِ. وَلَكِنْ بِالْقُرْبِ مِنْهُمَا كَانَتْ تَعِيشُ امْرَأَةٌ شِرِّيرَةٌ، لَمْ تَكُنْ تُحِبُّ الاسْتِيقَاظَ مُبَكِّرًا، فَأَغْضَبَهَا تَغْرِيدُ الْعُصْفُورِ لِدَرَجَةِ أَنَّهَا أَمْسَكَتْ بِهِ ذَاتَ صَبَاحٍ وَقَطَعَتْ لِسَانَهُ. فَاخْتَفَى الْعُصْفُورُ الْمِسْكِينُ وَلَمْ يَعُدْ يَطِيرُ إِلَى مَنْزِلِ الْعَجُوزَيْنِ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى التَّغْرِيدِ بَعْدَ قَطْعِ لِسَانِهِ.

عَلِمَتِ الْعَجُوزُ بِمَا حَدَثَ لِعُصْفُورِهَا فَأَصَابَهَا حُزْنٌ شَدِيدٌ، وَقَالَتْ لِزَوْجِهَا: "دَعْنَا نَذْهَبُ لِلْبَحْثِ عَنْ عُصْفُورِنَا الْمِسْكِينِ." فَبَدَآ مَعًا رِحْلَةَ بَحْثٍ عَنِ الْعُصْفُورِ، وَأَخَذَا يَسْأَلاَنِ كُلَّ طَائِرٍ يُصَادِفُهُمَا فِي الطَّرِيقِ: "أَتَعْرِفُ أَيْنَ يَعِيشُ الْعُصْفُورُ مَقْطُوعُ اللِّسَانِ؟" وَاسْتَمَرَّا عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ حَتَّى بَلَغَا الْجِسْرَ، وَلَمْ يَعْرِفَا أَيْنَ يَذْهَبَانِ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْبَحْثِ عَنْهُ، وَأَخِيرًا شَاهَدَا خُفَّاشًا مُتَعَلِّقًا فِي شَجَرَةٍ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ يَسْتَمْتِعُ بِسِنَةٍ مِنَ النَّوْمِ، فَسَأَلاَهُ: "يَا صَدِيقَنَا الْخُفَّاشُ! أَتَعْلَمُ أَيْنَ نَجِدُ الْعُصْفُورَ مَقْطُوعَ اللِّسَانِ؟". فَأَجَابَ: "نَعَمْ، أَعْلَى الْجِسْرِ وَفَوْقَ الْجَبَلِ." ثُمَّ أَغْمَضَ الْخُفَّاشُ عَيْنَيْهِ النَّاعِسَتَيْنِ وَنَامَ. وَذَهَبَ الْعَجُوزَانِ فَوْقَ الْجِسْرِ وَأَعْلَى الْجَبَلِ، فَوَجَدَا أَمَامَهُمَا طَرِيقَيْنِ لَمْ يَعْرِفَا أَيُّهُمَا يَسْلُكَانِ، فَلَمَحَا فَأْرَ حَقْلٍ بَيْنَ كَوْمَةٍ مِنَ الأَغْصَانِ وَالْحَشَائِشِ، فَسَأَلاَهُ: "هَلْ تَعْلَمُ أَيْنَ ذَهَبَ الْعُصْفُورُ

مَقْطُوعِ اللِّسَانِ؟" فَأَجَابَهُمَا: "نَعَمْ، عِنْدَ سَفْحِ الْجَبَلِ". وَمِنْ ثَمَّ ذَهَبَا يَبْحَثَانِ عَنْهُ عِنْدَ سَفْحِ الْجَبَلِ، حَتَّى وَصَلاَ إِلَى بَيْتِ صَدِيقِهِمَا الْمِسْكِينِ، وَمَا أَنْ رَآهُمَا الْعُصْفُورُ حَتَّى شَعَرَ بِفَرْحَةٍ غَامِرَةٍ، وَجَاءَتْ عَائِلَتُهُ وَأَحْنَوْا رُؤُسَهُم احْتِرَامًا لِلْعَجُوزَيْنِ، وَقَدَّمُوا لَهُمَا أَرُزًّا مَسْلُوقًا وَسَمَكًا. وَبَعْدَ أَنْ أَوْلَمُوا، رَقَصَ لَهُمُ الْعُصْفُورُ رِقْصَةَ الدُّورِيّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُسْعِدَهُمْ، وَعِنْدَمَا بَدَأَتِ الشَّمْسُ تَغْرَقُ فِي الْغُرُوبِ، هَمَّ الْعَجُوزَانِ بِالْعَوْدَةِ، فَأَحْضَرَ الْعُصْفُورُ سَلَّتَيْنِ وَطَلَبَ مِنْهُمَا أَنْ يَقْبَلاَ مِنْهُ إِحْدَى هَاتَيْنِ السَّلَّتَيْنِ كَهَدِيَّةٍ.

كَانَتْ إِحْدَى السَّلَّتَيْنِ ضَخْمَةً، وَتَبْدُو مُمْتَلِئَةً، وَالأُخْرَى صَغِيرَة وَتَبْدُو خَفِيفَةً، فَظَنَّ الْعَجُوزَانِ أَنَّهُمَا لَنْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَحْمِلاَ السَّلَّةَ الضَّخْمَةَ، فَاخْتَارَا الْخَفِيفَةَ وَقَالاَ: "نُفَضِّلُ هَذِهِ لأَنَّ رِحْلَةَ الْعَوْدَةِ إِلَى مَنْزِلِنَا سَتَكُونُ طَوِيلَةً وَشَاقَّةً". وَوَدَّعَهُمَا الْعُصْفُورُ، ثُمَّ عَادَا إِلَى مَنْزِلِهِمَا عَبْرَ الْجِبَالِ وَمَرَّا عَلَى الْجِسْرِ، فَكَانَا يَشْعُرَانِ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ، وَعِنْدَمَا وَصَلاَ فَتَحَا السَّلَّةَ، وَإِذَا بِمَشْغُولاَتٍ ذَهَبِيَّةٍ تَمْلأُ السَّلَّةَ، تَكْفِي لِجَعْلِهِمَا أَثْرِيَاء، وَهُوَ مَا جَعَلَهُمَا سَعِيدَيْنِ جِدًّا. وَانْتَبَهَتْ لِذَلِكَ جَارَتُهُمَا الشِّرِّيرَةُ الَّتِي قَطَعَتْ لِسَانَ الْعُصْفُورِ مِنْ قَبْل. وَبَدَأَتْ تَتَجَسَّسُ عَلَيْهِمَا عَبْرَ الْجُدْرَانِ. وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَعْرِفَ تَفَاصِيلَ الْقِصَّةِ.

وَفِي الصَّبَاحِ ذَهَبَتِ الشِّرِّيرَةُ إِلَى الْعَجُوزِ الطَّيِّبَةِ وَقَالَتْ لَهَا: "أَنَا آسِفَةٌ لأَنِّي قَطَعْتُ لِسَانَ عُصْفُورِكِ، أَخْبِرِينِي مِنْ فَضْلِكِ أَيْنَ أَجِدُهُ، لأَعْتَذِرَ لَهُ". فَأَخْبَرَتْهَا الْعَجُوزُ بِعُنْوَانِه، فَذَهَبَتْ مِنْ فَوْرِهَا عَبْرَ الْجِسْرِ ثُمَّ صَعَدَتِ الْجَبَلَ،

وَأَخِيرًا وَصَلَتْ إِلَى بَيْتِ الْعُصْفُورِ الصَّغِيرِ، لَمْ يَكُنِ الْعُصْفُورُ سَعِيدًا بِزِيَارَتِهَا، لَكِنَّهُ كَانَ عَطُوفًا مَعَهَا، وَبَذَلَ كُلَّ جَهْدٍ لِيُشْعِرَهَا بِتِرْحَابِهِ، فَقَدَّمَ لَهَا وَجْبَةً شَهِيَّةً. وَعِنْدَمَا هَمَّتْ بِالْعَوْدَةِ إِلَى بَيْتِهَا أَحْضَرَ لَهَا سَلَّتَيْنِ مِثْلَمَا فَعَلَ مَعَ الْعَجُوزَيْنِ الطَّيِّبَيْنِ. وَلأَنَّهُ يَعْرِفُهَا جَيِّدًا فَلَمْ يَسْتَغْرِبِ اخْتِيَارَ الْعَجُوزِ الشِّرِّيرَةِ لِلسَّلَّةِ الضَّخْمَةِ طَمَعًا فِي ثَرْوَةٍ أَكْبَر مِنْ تِلْكَ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا الْعَجُوزَانِ. أَخَذَتْهَا وَوَلَّتْ عَائِدَةً.

كَانَتِ السَّلَّةُ ثَقِيلَةً جِدًّا، فَشَعَرَتِ الْعَجُوزُ الشِّرِّيرَةُ بِالتَّعَبِ، فَبَدَأَتْ تَجُرُّهَا عَلَى الأَرْضِ.. كَانَتْ أَنْفَاسُهَا تَلْهَثُ.. وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْوُصُولَ إِلَى الْجِسْرِ قَبْلَ حُلُولِ الظَّلاَمِ، وَلَمَّا وَصَلَتْ أَخِيرًا إِلَى بَيْتِهَا كَانَتْ فِي غَايَةِ التَّعَبِ، وَلَكِنَّهَا تَنَاسَتْ كُلَّ تَعَبٍ لِمَعْرِفَةِ مَا بِدَاخِلِ السَّلَّةِ، فَأَحْكَمَتْ إِغْلاَقَ نَوَافِذِهَا حَتَّى لاَ يَرَى أَحَدٌ مَاذَا أَحْضَرَتْ، وَفَتَحَتِ السَّلَّةَ، وَإِذَا بِسِرْبٍ مِنَ الطُّيُورِ الْقَبِيحَةِ وَالْمُرْعِبَةِ تَخْرُجُ مِنْهَا، أَخَذَتْ تَعُضُّهَا وَتَخُزُّهَا بِشَكْلٍ مُؤْلِمٍ، تَدْفَعُهَا.. وَتَجُرُّهَا.. تَخْدِشُ بَشَرَتَهَا..، فَلَمْ تَجِدْ أَمَامَهَا بَعْدَ أَنْ عَصَفَتْ بِهَا الْمَخْلُوقَاتُ الْقَبِيحَةُ سِوَى أَنْ تَزْحَفَ إِلَى طَرَفِ الْغُرْفَةِ مُحَاوِلَةً الاسْتِغَاثَةَ بِجَارَتِهَا الْعَجُوزِ الطَّيِّبَةِ وَزَوْجِهَا، وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي فَتَحَتْ فِيهَا الْبَابَ، انْقَضَّتْ عَلَيْهَا الْمَخْلُوقَاتُ الْقَبِيحَةُ، وَحَمَلَتْهَا وَطَارَتْ بِهَا. وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ لَمْ يَسْمَعْ أَحَدٌ أَيَّ مَعْلُومَةٍ عَنْ تِلْكَ الْعَجُوزِ الشِّرِّيرَةِ.

(عَنِ الأَدَبِ الْيَابَانِيِّ) (تَرْجَمَةُ: يُوسُف الرِّفَاعِي)